محكم

المعجزات في فلسفة الدين

شيماء مُلّا يوسف
باحثة كويتية



قسم الدراسات الدينية

مقدمة

يدّعي أتباع العديد من الأديان وقوع أحداث خارقة أخبر عنها من شهدها، وانتشر خبرها سريعًا لما حملته هذه الأحداث من الغرابة والخير. وتناقلها الناس بوصفها ما يستحيل وقوعه وفقًا لأسباب طبيعية، ولأنّ الإتيان بها هو فِعلٌ مُعجزٌ للبشر؛ قيل عمن يأتيها أنّه مؤيد من قوى غيبية قادرة ومسببة لها. ولتعدد الأديان تعددت تسمية هذه القوى، إذ تُسمى كائنات روحية، قوى ما فوق طبيعية، أنصاف آلهة، أو كما في الأديان التوحيدية الله - تعالى -، ثم اصطُلح على تسمية هذه الأحداث بـ "المعجزات".

ولفظ المعجزات اصطلاحًا هو ما موضوعه ديني لحدث خارق للعادة (لعادة فهم الناس للقوانين الطبيعية) سببه تدخل قوة ما ورائية فرضت نفسها على النظام الطبيعي باختراقها له، في لحظة ما، ليتغير المسار الطبيعي للحدث الدال على قدرة الله - تعالى -.

وإن كان التساؤل يحمل شكًّا قبليًّا في الجواب، فإنّنا نتساءل هنا عن عبارة "الدال على قدرة الله": أكان للطبيعة قدرة دون قدرة الله؟ أما تتجلى قدرة الله في الطبيعة كلها؟ بالتالي: كيف يكون الحدث الخارق في الطبيعة دليلاً على قدرته؟ وعليه: أيخرق الله قدرته ليدل على قدرته؟!

ولهذه الأسئلة وغيرها انقسم الناس إلى مؤمن وإلى متشكك بوقوعها، وحيث الاعتقاد يكون بقوة الدليل فإنّ لكلا الطرفين مسوغاتهما في البرهنة على تصديق اعتقادهما الذي يأتي من مطابقته مع الواقع.

تم تقسيم البحث هنا إلى قسمين، في القسم الأول: "المعجزات" من خارج النظرة الدينية. إذ نطرح الإشكاليات التي يطرحها المتشكك بالمعجزات، على غرار: هل يمكن الاعتقاد بالحدث الذي سُميّ "معجزة" أنّه قد وقع بالفعل، كما تم الإخبار عنه أي حدثًا خارق للطبيعة؟ وإن وقع كما تم الإخبار عنه، ألا يمكن تفسير الحدث طبيعيّاً (وفقًا للقوانين الطبيعية)؟ وإن كان الحدث وقع كما تم الإخبار عنه ولم يتم تفسيره طبيعيًّا؛ هل يمكن الاعتقاد بوجود سبب غيبي كي نطلق عليه "معجزة"[1]؟

هذا في القسم الأول، أما في القسم الثاني: "المعجزات" من داخل النظرة الدينية. نُبيّن مفهوم المعجزة كما يذكره المتكلمون بتأكيدهم فكرة السببية والقدرة الإلهية لحدوث المعجزة. بعدها ننتقل إلى مسوغ اعتقاد المؤمن بها وهو "فهم المفسرين" للآيات، وما نراه من صعوبة أن يكون ذلك دليلاً على صدق الاعتقاد بالمعجزة.

[1] Peterson, M., Hasker, W., Reichenbach, B., & Basinger, D. , Philosophy of Religion, (Oxford: Oxford University press, 2010), P. 427

في نهاية البحث، لن يجد الشخص أمامه - وكعادة فلسفة الدين في قضاياها - فهمًا آخر للمعجزات، بل نظرة عقلانية أخرى ووفق نظرية المعرفة المعاصرة في الدين التي تحدد شرط الاعتقاد الصادق، سواءً أكان الشخص مؤمنًا بوقوعها أو متشككًا ورافضًا لها. وفي النهاية نلخص ما توصلنا إليه حول إشكالية المفهوم وغايتنا من موضوع المعجزات الذي تطرحه الأديان.

قبلًا نود الإشارة إلى بعض النقاط:

1- حرصنا على تقديم آراء المعاصرين من المتكلمين المسلمين والفلاسفة الغربيين، عدا ديفيد هيوم[2] الذي مازالت آراؤه هي الأهم في الموضوع.

2- ما يُطلق عليها بـ "الكرامات" نشملها في البحث مع المعجزات، لتطابق تعريفها مع التعريف العام للمعجزات إلا بشرط واحد، نبينه لاحقًا.

3- البحث لا يقدم فهمًا جديدًا بقدر ما هو محاولة لتبيين الموضوع الذي يعد من القضايا الرئيسية في هذا الفرع من الفلسفة، بالموازاة مع قضية "الخرافات" التي سبق وكتبنا بحثًا حولها بعنوان (المعتقدات الدينية والخرافات)[3].

أولًا: خارج النظرة الدينية

(أ) خرق القوانين الطبيعية:

بينما كان الصبي يلعب بسيارته الصغيرة قريبًا من محطة القطار حيث تسكن عائلته بجوارها، تعلقت عجلة سيارته بأحد قضبان سكة القطار[4]. وفيما هو منهمك بتحرير العجلة، أطلق سائق القطار الصافرة محذرًا للابتعاد عن مساره، إذ لن يتمكن السائق من رؤية المسار لانعطافه. يبدو الموت المحقق دهسًا للصبي، بسبب

[2] ديفيد هيوم David Hume (1711 -1776) فيلسوف أسكتلندي أثّر في تطور مدرستين فلسفيتين حديثتين، هما الشكوكية والتجريبية

[3] مقالة لنا منشورة على موقع الحوار المتمدن تحت عنوان "المعتقدات الدينية والخرافات"، http://tanweer.cc/readmore168.html

[4] Peterson, M., Hasker, W., Reichenbach, B., & Basinger, D. , Philosophy of Religion, (Oxford: Oxford University press, 2010), P. 429.

والمؤلف ينقل القصة من المجلة الفلسفية الفصلية الأمريكية سنة 1965، التي كتبها ج. هولاند.

عدم مبالاته لصوت الصافرة ولنداء تنبيه أمه له. لكن القطار توقف فجأة قبل انعطافه دون إرادة السائق الذي لم يعلم بوجود الصبي، فتفاجأ السائق، وشكرت الأم الله على هذه "المعجزة"[5].

الحدث غريب وغير متوقع وإن كان حدوثه نادرًا، لكنّه يقع. فالأولاد عادة ما يلعبون بجوار منازلهم، والمعدات الميكانيكية تتوقف فجأة لأسباب غير مباشرة، ولمن يؤمن بالمعجزة سيرى الحدث أنّه كذلك وأنّ عناية إلهية تدخلت لإنقاذ الصبي من الموت.

الحدث أسبابه طبيعية وليست غيبية، ولا يوصف بالمعجزة بحسب التعريف في المقدمة. وفيما يتداول عامة الناس لفظ المعجزة للحدث المدهش والغريب وغير المتوقع وفيه منفعة كشفاء مريض بالأسباب غير الطبيعية؛ هناك من يتوسع في تعريف المعجزة - بمفهومه الديني - ليُشمل الحدث غير المتوقع حتى بأسبابٍ طبيعية - كقصة الصبي والقطار - ويدعي أنّ أسبابه غيبية، ليبين ما خصّته العناية الإلهية من جزاء على إيمانه السليم وأفعاله الحسنة. وما يشيعه من هذا التفسير الغيبي، ينتشر أيضًا بين الجماعات الدينية دليلاً على صدق دينهم أو مذهبهم، بقصد التباهي أمام معتنقي الأديان - المذاهب - الأخرى إذ يعني الحظوة والتأييد الإلهي لهم.

لذلك؛ يقسم دافيس[6] المعجزة[7] إلى:

1- معجزة بسيطة: الحدث الذي لا يخالف ما اعتاده الناس من انتظام الطبيعة، ويتفق على وقوعه كلّ من المؤمن بالمعجزة والمتشكك بها، والاختلاف في سبب وقوعه. إذ يتفق كلاهما على حدث شفاء المريض، ويختلفان على السبب ما إذا كان طبيعيًّا كاستجابته للعلاج، أو غيبيًّا كالصلاة والدعاء.

---

[5] جيفري روي هولاند فيلسوف أمريكي معاصر وعضو في كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة LDS Church، وتعرف الكنيسة بالمورمونية نسبة إلى النبي مورمون - كما يعتقد أعضاؤها -. هولاند من الموالين المخلصين لمبادئ الفيلسوف المشهور بفلسفته حول اللغة والذهن والمذهب الإيماني نقصد لودفيغ فتغنشتاين. والقصة التي أشار إليها يمكن اعتبارها موجزًا لرأي هولاند في المعجزة التي يعرّفها "ليست الحدث الذي يخرق القوانين الطبيعية، بل حدث يقع بالمصادفة". ويوافق على كثير مما قاله هيوم، و"حيث لا يمكن التأكد من وقوعها فلنعتبرها حدثت صدفة، كحادثة الصبي مع القطار". تعريفه وعلى الرغم ممّا يشكله من أهمية إلا أنّنا لا نجده يختلف عن التعريف السائد "خرق القوانين". للتوسع حول هذين الاتجاهين في تعريف المعجزة، يمكن الاطلاع على

Philosophy of Religion, Anne Jordan, Neil Lockyer and Edwin Tate, (Cheltenham: Nelson Throne Ltd, 2004) P. 176.

[6] ستيفن دافيس Stephen Davies، أستاذ الفلسفة بجامعة أوكلاند في نيوزلندا، متخصص في فلسفة الدين والفكر المسيحي وكتب ما يقرب من خمسة عشر كتابًا والعديد من المقالات، وفي كتابه:

Risen Indeed: Making Sense of the Resurrection يتوسع في المفهوم المسيحي حول معجزة قيامة المسيح.

دافيس يرى أنّ المعجزة تعتمد على الشخص نفسه ونظرته إلى العالم، فإن كانت نظرته طبيعية فلن يؤمن بوقوعها، وإن كانت نظرته دينية فهو يؤمن بها. وسنبين رأيه بتفصيل في جزء (نظرة العالم).

[7] Davis, S. T., Philosophy of Religion, (Oxford: Oxford University press, 2010), P. 435

2- معجزة صعبة: الحدث الذي يخالف ما اعتاده الناس عن انتظام الطبيعة، كعودة ميت إلى الحياة. إذ يؤكد المؤمن وقوعها، وينفيها المتشكك إلا بوجود دليل كاف ومقنع.

وتوجد العديد من التعريفات للمعجزة وفي معظمها تتفق على أنّها: حادثة ملموسة استثنائية خارقة، غير متوقعة، غير قابلة للتكرار، لا ترتبط بظروف نفسية، لها ارتباط في النظام الديني، حدثت بتوسط فاعل خفي غيبي، واتجهت الحادثة نحو غاية معينة، ووقوعها يكشف عن غائية مقصدية[8].

سنركز الآن على معرفة القوانين الطبيعية التي يُشبهها رايخنباخ (فيلسوف العلم، ت 1953م): "الأعمى الذي ضل الطريق في الجبال ليس عليه إلا أن يستشعر طريقه بعصاه. فهو لا يعرف إلى أين سيؤدي به المسار، كما أنّه لا يعرف فيما إذا كان سيهوي به الطريق من على صخرة ذات منحدر سحيق. وبالرغم من كل ذلك، ليس عليه إلا أن يتابع السير مستشعرًا طريقه خطوة خطوة بعصاه. فليس أمامه سوى ذلك السبيل"[9]. لا يرى الإنسان - الأعمى في المثال - الحقيقة ولا يملك وسيلة لمعرفتها إلا بقدر ما يضعه من فرضيات - العصا - ولا يدري إن كانت صادقة أم كاذبة، مدركًا أنّها ليست المعرفة الحقيقية. وقد عرف الإنسان عجزه عن الوصول إلى الحقيقة في العالم الواقعي ولا يستثني العلماء أنفسهم من ذلك، إذ أقصى ما يمكنهم هو وصف مسار الطبيعة وتفسيره وتنظيمه في قانون، وهذا مما لا يمنع الطبيعة من إظهار أحداث أخرى غير متوقعة ولا تتفق مع المعرفة السائدة وقوانينها.

ليست القوانين الطبيعية أكثر من محاولات بشرية على مر التاريخ لفهم النظام في الطبيعة وفق منهج علمي صارم يخلو من الغموض والغيبيات يبدأ من فرضية حول بحث ما، لتُستنبط منه نظرية وتُخضع إلى التجريب، وإذا أكدت التجارب نتائج النظرية فإنّ ذلك يعطي قيمة لها وليس برهانًا على صدقها، ومن النظرية يصاغ القانون. لكن إذا جاءت نتائج التجارب معاكسة، فإنّ ذلك يعتبر تكذيبًا للنظرية[10]. أما في حال اختلاف مشاهدات العلماء "لاحقًا" مع تلك القوانين، فإنّهم يجرون تعديلات وتغييرات عليها أو حتى حذفها واستبدالها بغيرها في محاولة منهم للتقريب بين الواقع والقوانين. ولا نغفل عما ينظر إليه علماء اليوم من العقلانية باعتبارها موقفًا يشمل الاستعداد للإصغاء إلى الحجج النقدية والتعلم من الخبرة والانفتاح على النقد، بما فيه نقد الذات كما يقول كارل بوبر (فيلسوف العلم، ت 1994م). حيث لدى العلماء العديد من الاكتشافات والاختراعات

[8] اندريه لالاند، **موسوعة لالاند الفلسفية**، خليل أحمد خليل، المجلد الثاني، (بيروت: منشورات عويدات، 2008)، ص 811 و1116

[9] توماس س. كون، **بنية الثورات العلمية**، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص 13

[10] المرجع نفسه، ص 27

التي خرقت القوانين، لكّنهم لا يطلقون عليها "معجزات"، وفي مثل هذا الظرف هم على استعداد لمواجهة الأحداث غير المتوقعة، ليعيدوا النظر في نظرياتهم وقوانينهم.

والحق، يسرد لنا علم التاريخ ما تم هدمه من النظريات العلمية التي استمرت لقرون (كنظرية مركزية الأرض لبطليموس) فعندما لا تتوافق الملاحظات اللاحقة مع القوانين المعروفة ستحل محلها قوانين جديدة، وتجرف القوانين المنهارة معها كل ما تقابله ليحل محلها فهم آخر. وبعدها ينظر العلماء إلى العالم نظرة مختلفة كما لو أّنهم انتقلوا فجأة "إلى كوكب آخر تُرى فيه الأشياء المألوفة في ضوء مختلف، وترى معها أشياء غير مألوفة أيضًا"[11].

وعلى الرغم من الأبحاث المستمرة والجديدة حول عمل الطبيعة، يعترف العلماء بالعجز في تفسير بعض الأحداث وفق ما لديهم اليوم من النظريات والقوانين والأدوات لكنّهم لا يرجعونها لأسباب غيبية، فمن خلال الخبرات البشرية تتنامى معرفة الإنسان بالقوانين التي تعمل الطبيعة بها ويصير الغيبي طبيعيًّا.

بيّنا أنّ القوانين الطبيعية ما هي إلا معرفة بشرية، وفي حال مخالفة التجارب والملاحظات لما لدى العلماء من القوانين، فإنّهم يراجعون نظرياتهم لتعديلها، لأنّ المعرفة في تطور مستمر ولا تتوقف عند لحظة اكتشاف القانون، كما هو الحال في قصة اكتشاف لافوازيه للأكسجين وما أدى إليه هذا من تغييرٍ في نظريات وقوانين أخرى مرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بهذا الاكتشاف.

والقصة كالآتي: ساد اعتقاد أنّ المادة مكونة من الهواء والنار والماء والتراب، ومما لا شك فيه أنّ هذا التصور لم يقتصر على مكونات المادة وحدها، بل طال أشياء أخرى، فحسبما رأى الفلاسفة قديمًا أنّ الإنسان أيضًا يتكون من المواد الأربعة تلك. ثم تغيرت هذه الحقيقة - تجاوزًا - وحلت محلها نظرية الفلوجستين في الاحتراق (كل المواد القابلة للاشتعال تحوي على مادة الفلوجستين التي تنطلق عند الاحتراق). وعلى الرغم من هذا الاعتقاد الخاطئ، كان لديهم دليل يثبت صحة اعتقادهم إذ كان يخف وزن المادة عند احتراقها مما يدل على خروج الفلوجستين منها. حتى أثبت الكيميائي انطوان لافوازيه (ت 1794م) خطأ النظرية، واكتشف الأكسجين.

لم يُخطّئ لافوازيه النظرية وحدها، فالاكتشافات تصاحبها في العادة تغييرات في جوانب أخرى عديدة، إذ توصل لافوازيه أيضًا إلى أنّ المواد ليست مركبات - لاتحادها مع الفلوجستين - كما كان سائدًا، بل بعضها عناصر. وكذلك تغير الاعتقاد حول الماء والهواء إذ هما ليسا عنصرين بسيطين كما كان التصور القديم، فبيّن

---

[11] المرجع نفسه، ص 205

أنّ الماء هو مركب من عنصرين أكسجين وهيدروجين، والهواء مخلوط من غازات. ووضع لافوازيه أيضًا قانون حفظ المادة[12].

في الواقع، حدث الاحتراق لم يتغير لكن فهم العلماء له وتفسيرهم لما يحدث هو الذي تغير شأن العديد من المكتشفات التي تثبت لنا عدم مخالفة الأحداث للطبيعة، بل تخالف ما نعرفه نحن عنها. فإذا ظهر حدث خارق للقوانين الطبيعية أو بمعنى أدق مخالف للقوانين الطبيعية المعروفة، سيتم النظر فيه لمعرفة أسبابه وتعديله.

وبناء على ذلك، يقول علماء اليوم عن صدق القانون إنّه "محتمل" وليس بيقين قاطع، ولما لاحظ البشر أحداثًا وصفوها بـ "الخارقة" واليوم الأحداث ذاتها توصف بـ "الطبيعية"، نقول: المعجزة بحسب التعريف؛ "نظريًّا" هي مستحيلة.

(ب) الدليل التاريخي:

التاريخ كتبه مؤرخون بناء على ما كان الناس يروون من قصص باقية في ذاكرتهم، ولم يهتموا بصحتها[13] قدر الاهتمام بنقلها. ومما نقله المؤرخون من أخبار الأحداث الخارقة (نحو ما يوصف شخص ب "المشتبه به" ريثما تثبت التهمة ليوصف بـ "المجرم"؛ لن نطلق على الأحداث الخارقة لفظ المعجزات، فهذا سيحدد موقفنا سلفًا من موضوع نبحث فيه) والتي لا تختلف كيفية كتابتها عن غيرها من الأحداث العادية. كما بيّنا في المقدمة انتشار أخبار الأحداث الخارقة سريعًا، إلى حد أنّها صارت الحس المشترك بين الناس، وما نعنيه بالحس المشترك - ووفق المفهوم المعاصر -: مجموعة آراء ومعتقدات مفترضة، اتفق عليها معظم أفراد المجتمع لا شعوريًّا، فهو قائم على أفكار هشة وشعبية تداولها الناس فيما بينهم، وعلى الرغم من هشاشتها إلاّ أنّ الآراء المضادة لها، وكما يصفها لالاند - في موسوعته الفلسفية - تبدو أنّها انحرافات وضلالات فردية، يُحسن الهزء منها إن كانت طائشة، أو الاعتناء بها والحد من انتشارها عندما تصبح خطيرة على المجتمع.

أخبار الأحداث إيّاها لا يمكن التشكيك بها، حتى مع العلم أنّها مدعمة بشهادة عدد قليل من الناس، وما لشهادتهم من الضعف أمام الموضوع المباشر للحواس وهو انتظام الطبيعة[14]. لا يمكن التعويل على شهادة الناس لما لذاكرتهم من الضعف أحيانًا، ولعواطفهم وميولهم من بالغ التأثير على ما يروونه، بل وما يرونه أيضًا لسهولة خداعهم. فالكثير مما يتكلم به الناس وما كُتب في التاريخ لا يخلو من العواطف وخاصة الدينية

---

[12] قانون حفظ المادة: عند حدوث أي تفاعل كيميائي فإنّ كتل المواد المتفاعلة تساوي كتل المواد الناتجة عن التفاعل.

[13] غوستاف لوبون، **فلسفة التاريخ**، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة: دار العالم العربي، 2013)، ص 33

[14] ديفيد هيوم، **تحقيق في الذهن البشري**، ترجمة محمد محجوب، (بيروت: المنظمة العربية للنشر، 2008)، ص 145

والقومية، فقصص الإغريق حول بطولاتهم وتدخل الآلهة فيها، كهيركوليز، وقصص الرب الذي كان يقاتل مع اليهود؛ هي كثيرة. أحيانًا لا ينقل الناس الأخبار بخبث، ولكن الأخطر منه النقل بحسن نية، مما يؤدي إلى تضخيم الحدث وتخيل ما ليس فيه، فتسيطر العاطفة على العقل ويرتفع الحدث العادي إلى السماء، كما نقرأ في النصوص الدينية أنّ إلهًا يفرح إذا انتصر شعبه - كما يصفون أنفسهم -، ويغضب على شعوب أخرى دون مبرر موضوعي.

ومما يتعلق بالثقة في ذاكرة الناس، سأثق بذاكرتهم وأتصور مكانًا لم أزره ولم ألتق بزواره على إثر ما ينشرونه في الانترنت - ليكن ثلاثة أشخاص مستقلين عن بعضهم - من مواصفات، مثل أنّه مكان جميل وفيه بحيرات وحدائق ومتاحف وأسواق. ومن الطبيعي تصديق شهادتهم لأنّها معقولة، ولا يوجد سبب يدعو للتشكيك بها. لكن، ماذا لو أضافوا إلى شهادتهم وجود كائنات فضائية تسكن هذا المكان؟ حينها أتساءل: هل أُكذّب شهادتهم؟ أم أكذب عقلي؟ بالطبع، أكذب شهادتهم.

الوثوق بشهادة الناس يكون فقط بوجود دليل كاف ومقنع نستدل به على صدق كلامهم، وهذا ما يقوله هيوم عن المعجزات، التي لم ينكرها في الواقع إجمالًا، لكنه لم يجد دليلًا يدعوه لتصديقها، لأنّ:

أولًا: لا توجد معجزة في التاريخ شهد بها عدد كاف من الناس ممن لا مأخذ على سلامة عقولهم ومعرفتهم بحيث نثق بشهادتهم[15] وخاصة عندما ينقلون خبرًا مبهمًا وغامضًا ولا يمكن تصديقه. ففي جملة أخبار المعجزات لا يُذكر الخبر كاملًا، وهذا على غير عادة الناس في الحديث عن أخبار الأحداث الغريبة عليهم بالكلام دون توقف حول التفاصيل الدقيقة جدًّا لما دُهشوا من رؤيته أو سماعه. فإن رأى أحد ميتًا عاد إلى الحياة - كما يزعم - ثم سكت عن بقية تفاصيل الحدث، كالمكان الذي تم الحدث به، والزمان، وعدد الشهود، وغيرها من التفاصيل المطلوبة للوثوق بالشاهد في الأحداث العادية، فالشك يساور شهادته. إذًا، كيف والواقعة هنا عن حدث غير عادي؟!

ثانيًا: يميل الناس إلى قول الأخبار المشوقة والمثيرة بنهاياتها السعيدة المبهجة وسماعها، وإنْ كانت غير صادقة، فحتى الذين لا يصدقونها لا ينكرون لذة سماعها وربما ينقلونها لآخرين، وهذا ما يكون عليه حال الناس من التشويق والإثارة في سماعهم لأخبار الرحالة وحكاياتهم عن عجائب الشعوب وغرائب العالم[16] في البر والبحر، وعن الوحوش وكيف تمت إبادتها، وعن الجميلات اللاتي يظهرن فجأة في وسط الصحراء، وعن كائن

---

[15] المرجع نفسه، ص 153

[16] المرجع نفسه، ص 154

غريب ينقذ الصالحين من الغرق... ويقول هيوم عما ينقله المتدين من أخبار "يجوز أن يكون من الذين تأخذهم الحماسة، فيتخيل أنّه يرى ما لا وجود له. كما يجوز أن يكون عارفًا بوهم ما يروي، وأن يستمر عليه وهو على أحسن سريرة، خدمة لدعواه المقدسة"[17].

ثالثًا: "إنّ أقوى الشكوك على أخبار الخوارق والمعجزات هي أنّها إنّما تتكاثر خاصة بين الأمم الجاهلة والمتوحشة، أو أنّه إذا ما تبناها شعب متحضر، فإنّنا سنجد ذلك الشعب قد تلقاها عن أجداد جهلة ومتوحشين، نقلوها إليه بقداسة تلك الحرمة وذلك النفوذ اللذين يصاحبان دائمًا عقائدنا الموروثة"[18]. ويعزو غاسكن[19] بداية انتشار المسيحية إلى المتحمسين لكل ما هو مدهش وغريب، ولمن ينخدعون بسهولة. فالمسيحية - كما يدعي - لم تنتشر بين مجتمع مثقف، بل في مكان ناءٍ من العالم الروماني بمجتمع غير مثقف[20]. وهذا حال المجتمعات غير المثقفة، إذ نجد أنّه يكثر بها أخبار الأحداث الخارقة ومن دون تمحيص.

أشعل هيوم - قبل ثلاثة قرون - شرارة موضوع الأحداث الخارقة، وإلى اليوم، لا يوجد أحد من الفلاسفة إلا وتوقف عند حجج هيوم مؤيدًا أو معجبًا، علاوة على أنّ التطور في نقد التاريخ القديم والتوراتي، يميل إلى دعم حججه[21] الموضوعية. ويبقى سؤال هيوم هو الأهم: إن كانت المعجزات حدثت في الماضي، لماذا لا تحدث في أيامنا؟!

ثانيًا: داخل النظرة الدينية

(أ) المفهوم الديني:

المعجزة لم تُذكر في القرآن لفظًا، لكنه لفظ اصطلاحي اتفق عليه المتكلمون بناء على ما يشير إليه لفظ "آية" من أحداثٍ مُعجزة، وعلى ذلك تَشكّل مفهومها، وصار لدى بعض منهم[22] أنّ الاعتقاد بها من ضروريات

[17] المرجع نفسه، ص 154

[18] المرجع نفسه، ص 155

[19] جون غاسكن John Charles Addison Gaskin، فيلسوف معاصر ولد في انجلترا ودرس في جامعة أوكسفورد. عمل في البنك الملكي في اسكتلندا قبل أن يُدرس في جامعة دبلن ويصبح أستاذًا في الفلسفة الطبيعية. له العديد من الكتب في فلسفة الدين، وخاصة حول فلسفة هيوم في الدين.

يرى غاسكن أنّ هناك مفهومين للمعجزة، الأول: خرق القوانين الطبيعية، والثاني: أنّها تحدث صدفة لكن من خلال القوانين الطبيعية (كما هو رأي هولاند). ويعتقد أنّ صعوبات الاعتقاد بالمفهوم الأول، انسحبت على الاعتقاد بالثاني الذي يتوسع هو في النقاش حوله. ولديه آراء جديدة ومخالفة لهيوم حول المعجزات.

[20] Bloemendaal, P. F. , Grammars of Faith, (Belgium: Peeters, 2006), P. 278.

[21] المرجع نفسه، ص 278

[22] بلقاء لم نتبين دقة كلامه مع علي جمعة - مفتي جمهورية مصر السابق -، يقسم المعجزات إلى: التي حدثت ولم نشهدها "والمعجزات على هذا النحو، قد يصدقها الناس وقد يكذبونها، كما أنّ المعجزة المادية هي حجة دامغة على من يشاهدها ولكنها قد لا تكون حجة دامغة على من لم يشاهدها وقت حدوثها أو

الدين، كونها العلامة التي تدل على صدق دعوى النبي اتصاله بما وراء الطبيعة، وأنّه مؤيد بقوة إلهية قادرة على كل شيء حتى على خرق العادة. وأمام دهشتنا إزاء هذه الضرورة، فإنّنا نستفهم عن الذين لم يشهدوها لتكون لهم من ضروريات الدين! لذلك لا ترى بعض المذاهب ضرورة الاعتقاد بها، فالقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 1025م) يقول: "المعجزات المادية والحسية لا تعتمد في إثبات النبوة إلا لمن شاهدها". بالرغم من ذلك، غالبية المذاهب تؤكد ضرورة الاعتقاد بها لدلالتها على صدق النبوة.

وبعض المذاهب الإسلامية تسمي المعجزة، كرامة إذا كانت لغير الأنبياء "الكرامة أمر خارق للعادة يظهرها الله تعالى على يد ولي من أوليائه تكريمًا له أو نصرة لدين الله... والفرق بينها وبين المعجزة أنّها تحصل للولي والمعجزة للنبي"[23]. ومثلما المعجزة خرق للعادة لتدل على التأييد الإلهي، كذلك هي الكرامة، وأخبار وقوعها تكثر بين الجماعات الدينية، فكل دين يدعي معتنقوه أنّه الحق، ودليلهم ما يحدث من معجزات للمؤمنين من ديانتهم. وهذا في الواقع تأكيد على عدم حدوثها، فبينما يدعي السيخي حدوثها وأنّها إشارة على صدق دينه، أيضًا المسيحي يخبر عن حدوثها لذات الغرض وكذلك معتنقو بقية الأديان. وهذا دليل إما على غياب ما يسمى بالدين الحق، أو أنّها - المعجزات - مجرد ادعاءات لا أساس لها، مما يشكك في حدوثها.

بالعودة إلى مفهوم المعجزة، نورد هنا ما كتبه بعض المتكلمين[24] حوله. وإنّنا إذ نجد أنّ ما يذكرونه في المفهوم قائم بالأساس على آراء المفسرين للقرآن. فمما يذكره:

1- محمد باقر الصدر[25]: "القوانين الطبيعية تتعطل لحماية شخص، كانت الحكمة الإلهية تقتضي الحفاظ على حياته... كما تعطل قانون انتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساويان،

بعده بقرون". وبيّن معجزة النبي محمد - ص - وهي القرآن الكريم: "أما إنكار معجزة المعجزات وهو كتاب الله المعجز فهو مما يدخل صاحبه في دائرة الكفر، والأصل في هذا أنّ المعجزة القرآنية هي وحي الله المعجز لنبيه ليبلغ للناس المنهج، فالإنكار ليس إنكارًا للنبوة فقط بل إنكار كذلك للخالق وصدقه عندما بلغ، وإنكار للوحي المبلغ". والذي لم نتبينه إن كان يقصد إنكار القرآن بأنّه وحي إلهي، أم إنكار "معجزة" القرآن.

علي جمعة، "الإيمان بالمعجزة قرين الإيمان بالنبوة"، صحيفة الخليج(الشارقة)، الأربعاء، 7/ أغسطس/ 2013

[23] ابن عثيمين، **مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين**، جمع وترتيب فهد السليمان، (الكويت: دار الوطن للنشر، 1413هـ)، ج4، ص311

[24] لأنّنا وجدنا مفهومهم هو الأكثر شيوعًا اليوم، ولم نورد آراء الأشاعرة والمعتزلة لما يغلب الطابع الكلامي المطول، في كلامهما. نوجز رأي الأشاعرة بفكرة "الخلق المستمر" أي أنّ العالم الآن يجري خلقه مرة في كل آن، في أقل جزء من الوقت. وأنّ مشيئة الله تتدخل مباشرة في كل شيء بكل مرة، منكرين لقانون العلية الذي تمسك به خصومهم من المعتزلة. يبين هذا ما قاله أبو حامد الغزالي (1058- 1111): "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا، ليس ضروريًّا عندنا، بل كل شيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما، متضمنًا إثبات الآخر... مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار... فإنّ اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقها على التساوق، لا لكونه ضروريًّا في نفسه، غير قابل للفوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة وهلم جرًّا إلى جميع المقترنات". تهافت الفلاسفة، (صيدا: المكتبة العصرية، 2009)، ص 176

أما المعتزلة فهم يؤمنون بالسببية - بخلاف الأشاعرة -، وأنّ القوانين الطبيعية التي هي من فعل الله، تسري عليها السببية. لكنهم لم ينكرونها صراحة.

[25] محمد باقر الصدر (1935-1980) الملقب بالشهيد الصدر الأول، مرجع ديني شيعي، مفكر، فيلسوف، لديه العديد من الأعمال، أبرزها: فلسفتنا، اقتصادنا، الأسس المنطقية للاستقراء.

لحفظ حياة النبي إبراهيم... كل هذه الحالات تمثل قوانين طبيعية عُطلت لحماية شخص، كانت من الحكمة الربانية تقتضي الحفاظ على حياته... وتدخلت العناية الربانية في تعطيل ذلك القانون لإنجاز ذلك"[26].

فيتساءل الصدر: "كيف يمكن أن يتعطل القانون، وكيف تنفصم العلاقة الضرورية التي تقوم بين الظواهر الطبيعية؟ وهل هذه إلا مناقضة للعلم الذي اكتشف ذلك القانون الطبيعي...؟"[27].

فيجيب: "أنّ العلم نفسه قد أجاب على هذا السؤال بالتنازل عن فكرة العلاقة الضرورة[28] في القانون الطبيعي. فهذه الضرورة حالة غيبية، لا يمكن للتجربة ووسائل البحث الاستقرائي والعلمي إثباتها"[29].

على ذلك، الصدر لم يُنكر السببية فالسبب والحدث هما طبيعيان، أما علاقة الضرورة بينهما فهي غيبية. والعناية الإلهية تدخلت بنحو غير مألوف في الطبيعة، لتعطل قوانينها.

2- محمد حسين الطباطبائي[30]، كتب في تفسيره: "القرآن يقتص ويخبر عن جملة من الحوادث لا يساعد عليه جريان العادة المشهودة في عالم الطبيعة على نظام العلة والمعلول الموجودة كمعجزات نوح وهود وصالح...فإنّها أمور خارقة للعادة المستمرة في نظام الطبيعة...أصل هذه الأمور ليس مما تنكره عادة الطبيعة... هناك سبب طبيعي مستور عن علمنا يحيط به الله سبحانه ويبلغ ما يريد من طريقه"[31].

"ليست المعجزة بالنسبة إلى قوم وغير معجزة بالنسبة إلى آخرين لأنّهم مطلعون على سببها الطبيعي الحقيقي، وفي عصر دون عصر... ليست المعجزة معجزة من حيث أنّها مستندة إلى سبب طبيعي مجهول حتى تنسلخ عن اسمها عند ارتفاع الجهل وتسقط عن الحجية، ولا أنّها معجزة من حيث استنادها إلى سبب مفارق للعادة، بل هي معجزة من حيث أنّها مستندة إلى أمر مفارق للعادة غير مغلوب السبب، قاهرة العلة البتة... "[32].

---

[26] محمد صادق الصدر، **تاريخ الغيبة الصغرى**، (بيروت: دار ومكتبة البصائر، 2011) ص 26 و27. وقد كتب المقدمة محمد باقر الصدر، والاقتباس من المقدمة.

[27] المرجع السابق، ص 27

[28] الضرورة في العلاقة السببية: أيْ إن حدث (أ) بالضرورة يحدث (ب)، إن كانت درجة الحرارة 100 فسيغلي الماء، وهي التي يقول هيوم عنها: هي ليست ضرورة، لكنها عادة ذهنية ترسخت في الذهن عن طريق التكرار.

[29] تاريخ الغيبة الصغرى، ص27

[30] محمد حسين الطباطبائي (1321 هـ - 1402هـ) فيلسوف ومفسر إسلامي، أشهر أعماله "الميزان في تفسير القرآن" الذي يقع في عشرين مجلدًا. بالإضافة إلى أعمال أخرى في الفلسفة والمنطق: بداية الحكمة، نهاية الحكمة، الرسائل السبع...

[31] الميزان في تفسير القرآن، ص 78

[32] المرجع نفسه، ص 82

"على أن كل شيء مملوك محض لله لا يشاركه فيه أحد، وله أن يتصرف فيها كيف شاء وأراد، وليس لأحد أن يتصرف في شيء منها إلا من بعد أن يأذن الله لمن شاء..."[33].

كذلك الطباطبائي لم يُنكر السببية، ولكن يرى أنّ سبب المعجزة غيبي وليس بمجهول السبب، لنعرفه عندما تزيد معرفتنا فيصبح المجهول معلوماً. والأمر والإذن بأمر الله ليتصرف في الطبيعة كيفما شاء.

3- محمد عبده[34] لا يختلف عنهما، ففي كتابه رسالة التوحيد يقول: "المعجزة ليست من النوع المستحيل عقلاً، فإنّ مخالفة السير الطبيعي المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حالة المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف. فإن قيل إنّ ذلك لا بد أن يكون تابعًا لناموس آخر طبيعي، قلنا إنّ واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما في الأمر أنّنا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده، على أنّنا بعد الاعتقاد بأنّ صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنّه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة وتابعاً لأي سبب إذا سبق فى علمه أنّه يحدثه كذلك"[35].

وأيضًا محمد عبده لا ينكر السببية، ولكن المعجزة تحدث بقوانين غيبية خاصة وليست طبيعية، أي أن في الطبيعة نوعين من القوانين أحدهما خاص بالطبيعة والآخر خاص بالمعجزات، لأنّ الله قادر على كل شيء.

مما سبق نجد التشديد على فكرتين: السببية، والقدرة الإلهية. ونبينهما كما لاحظناهما:

أولًا، السببية: الأحداث الخارقة لا تخترق السببية، ولكن السبب هو غيبي بالنسبة إلى البشر، أو الرابطة ما بين السبب والمسبب هي غيبية، أو قوانين أخرى غيبية. علينا القول، إنّ السببية هي إحدى مناهج الاستدلال على وجود الله عند المتكلمين، فلكل حادث سبب والبعرة تدل على البعير، حيث وجود المخلوق قائم على وجود خالق يعطيه هذا الوجود، والكون المخلوق لا بد من خالق له - سبب - وهو الله، وهذا دليل على وجود الله - عند المتكلمين -. وبما أنّ السببية دليل على وجود الله -

---

[33] المرجع نفسه، ص 79

[34] محمد عبده (1849م- 1905م) عالم دين، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي. وتعلم الفلسفة وعلم الكلام على يد أستاذه جمال الدين الأفغاني الذي تأثر به كثيرًا. ومن أعماله: رسالة التوحيد، تحقيق وشرح "البصائر القصيرية للطوسي"، تحقيق وشرح "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" للجرجاني...

[35] فهمي أبو الخير، "المعجزات"، **مجلة عالم الروح**، (إيران: العدد 10 مرداد 1327)، ص 2

تعالى ـ، فضلاً عما ورد في الآيات أنّ لكل شيء سببًا، إذًا، وبناء عليهما لا يمكن مخالفة السببية هنا، لذلك هم يؤكدون وجود سبب للمعجزة، أين هو؟ موجود لكنه غيبي... كيف؟!

ثانيًا، القدرة الإلهية: دليل النظام يعتبر أيضًا أحد مناهج الاستدلال على وجود الله، فالنظام المحكم المبدع المدهش في الكون لا بد من مُنظّم له. ومفهوم المعجزة يخالف دليل النظام لأنّها تخترقه، إن كان فِعل الفاعل يدل على وجود فاعل ويكشف عن صفة الفاعل، فلن يدل خرق النظام على صفة من صفات الله. إلا أنّهم يستندون على آية هنا وآية هناك ليتسق مع المفهوم، وما استدلالهم بالآيات إلاّ لتكون حجة على صدق مفهومهم ولا يمكن بعد ذلك لأحد رده أو التشكيك فيه.

من الآيات التي يستدل المتكلمون بها على النظام الذي أنشأه الله في الطبيعة:

"إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" [القمر: 49]، "وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا" [الفرقان: 2]

ثم يتبعونها بآيات أخرى تدل على قدرة الله في خرق النظام:

"قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ" [النساء: 78]، "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ" [الأعراف: 54]،

إذ يُقرن الأمر الإلهي بخرق النظام في الطبيعة، وهو الذي أوجده خالقها، دون النظر للأمر الإلهي المتمثل بقوانينها، إذ نقرأ آيات تدل بوضوح على النظام القائم في الكون وأنّها بأمر الله ـ تعالى ـ: "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" [الأعراف: 54].

بالتالي، مفهوم المعجزة يُبيّن: أحداثًا مادية وقعت في تاريخ الأنبياء والأولياء، وغير مألوفة للعادة، وسببها تدخل إلهي يتقاطع مع ما هو مألوف من القوانين الطبيعية بقصد رفع الشر، وحدوثها دليل على القدرة الإلهية التي تفوق الطبيعة والعلوم البشرية (نلمح أحيانًا عداءً مضمرًا للعلم والعلماء). وأيضًا يُبين مفهوم المعجزة وجود تمييز بين قدرتين متصارعتين للسيطرة على الطبيعة "قدرة الله وقدرة الأشياء الطبيعية... وقدرة الله كقدرة الملك المعظم، وقدرة الطبيعة كقوة غاشمة"[36]، وكأنّه لا يمكن تصور قدرة الله "إلا بقدر إلغائنا للعلل الطبيعية وتصورنا لأشياء تعلو على نظام الطبيعة"[37].

---

[36] سبينوزا، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، ترجمة حسن حنفي، (بيروت: دار الطليعة، ط4، 1997)، ص 221

[37] المرجع نفسه، ص 221

مفهوم المعجزة الذي وضعه المتكلمون لن يغلق باب جدل "معضلة الشر"[38] الذي يحاول بعض الفلاسفة إغلاقه عن طريق تعديل الفهم القديم لمفهوم الشر، وهنا وفيما يتعلق بمفهوم المعجزة، يلوح السؤال التقليدي: إن كان الله يتدخل في الطبيعة، لماذا لا يمنع وقوع الشرور؟

ويرد المتكلمون: لا يمكن لنا فهم أفعال الله!

وقعت حادثة في كنيسة بأمريكا، إذ شاهد المصلون دموعًا تُذرف من عيني تمثال السيدة العذراء، واختلف الشهود فيما بينهم، إذ اعتبرها البعض معجزة والآخر خدعة وغشًّا. فتساءلت امرأة بسيطة: لماذا الأم المقدسة لا تذرف الدموع في مشهد واحد من مشاهد حياتنا البائسة؟[39].

نتيجة ما سبق؛ المفهوم الذي وضعه المتكلمون للمعجزة فيما يخص أنّها من أفعال الله ودليل على قدرته، أشبه بمن يضيف فائضًا على الفائض، إذ كثير من المؤمنين بالله يعتقدون بقدرته الكلية في الطبيعة، وأنّ قوانينها هي أوامر إلهية، سواء أكانت أحداث خير أم شر، إنقاذ طفل من الموت دهسًا تحت عجلات القطار أو موت مئات الأطفال بسبب زلزال.

ولا بد من الإشارة، أنّ الاعتقاد بمفهوم المعجزة هو اعتقاد صادق معرفيًّا، فما أدرانا أنّه لا يوجد تدخل غيبي في الطبيعة؟ فبينما لا يمكن إخضاع هذه القضية للتجربة والبرهنة على صدقها من عدمها بطريقة موضوعية (أنّى لنا إخضاع هذه القوة للتجربة!)، عندئذ لا يمكن تكذيب القضية، وعليه يبقى مفهوم التدخل الإلهي في الطبيعة "المعجزات" مفهومًا متماسكًا بغض النظر عن العوامل السببية.

وكي يعتقد الشخص اعتقادًا صادقًا معرفيًّا لا بد أن يملك دليلاً على صدق اعتقاده، ويقول أفلاطون: المعرفة هي اعتقاد صادق مسوغ له، ما يسوغه أو يقوم عليه البرهان والدليل. ودليل المؤمن بالمعجزات، وفق مفهوم المتكلمين، قائم فقط على فهم المفسرين، وهذا ما سوف نذكره في الجزء التالي.

<u>(ب) دليل المؤمن بها وفق مفهوم المتكلمين:</u>

كما لم يتبين المؤرخون من صدق الأخبار التي كتبوها، كذلك المفسرون إذ وضعوا فهمهم بناءً على ما تناقله الناس، وخاصة بوجودهم في منطقة غنية بالأساطير، حيث "الثقافة الشعبية العتيقة التي ظلت حية في

---

[38] معضلة الشر: والسؤال حول كيف يوجد الشر، مع الاعتقاد بوجود إله كلي القدرة والخير المطلق، وأسئلتها: هل يريد الله أن يمنع الشر لكنه لا يقدر؟ إذًا فهو ليس كلي القدرة. هل هو قادر لكن لا يريد؟ إذا هو شرير. هل هو قادر ويريد منعه؟ فمن أين يأتي الشر؟!

[39] Bloemendaal, P. F. , Grammars of Faith, (Belgium: Peeters, 2006), P.. 292

منطقة الشرق الأوسط بفضل النقل الشفهي الذي كان الطبري لا يزال يعكس صيغته ومجرياته"[40]، والمفسر ساهم في نشر التصورات والشروحات التي كانت منتشرة في المنطقة، وزاد عليها القصاصون الشعبيون[41].

يُرجع باروخ سبينوزا (1632م - 1677م) فهم المعجزة إلى اليهود بقوله: "ويبدو أنّ أصل هذا الرأي يرجع إلى اليهود القدماء، فقد قص هؤلاء اليهود معجزاتهم، وحاولوا أن يبينوا أيضًا أنّ الطبيعة كلها مسيرة لمصلحتهم وحدهم بأمر من الإله الذي يعبدونه... وقد سر الناس بذلك إلى حد أنّهم مازالوا حتى اليوم يصطنعون المعجزات ببالهم حتى يعتقد الآخرون أنّ الله فضلهم على الآخرين، وأنّهم هم العلة الغائية التي لأجلها خلق الله الأشياء"[42].

وتتعقب آمال ربيع[43] هذا الرأي لتبين أثر الإسرائيليات[44]، فتقول: الإسرائيليات هي كل ما دخل إلى التراث الإسلامي، وبخاصة في مجال التفسير، ومعظم ما يُروى من الأساطير يرجع مصدره إلى أصل يهودي، وأول من نشرها بين المسلمين كان اليهود الذين عاشوا إلى جوار المسلمين في المدينة. أما فيما يتعلق بأصحاب هذه الإسرائيليات والنصرانيات ترى أنّهم ممن جاءوا إلى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام بمئات السنين، حيث انتشرت المسيحية على نطاق واسع خاصة في أطراف الجزيرة، كما غلب اليهود على أقاليم كاملة منها.

تقول أيضًا: دخلت الإسرائيليات في غفلة من المسلمين إلى تراثهم وتفاسير قرآنهم، وليس من السهل تنقيتها فهي تتطلب معرفة عميقة بتراث بني إسرائيل ولغاتهم، وموقف السلف من الإسرائيليات اتسم بالتساهل، فتسربت عبر سطورهم ومصنفاتهم.

وعن تفسير الطبري: على الرغم من أنّ تفسيره كان جامعاً شاملاً، إلا أنّه جمع في تفسيره كمًّا هائلاً من الروايات الإسرائيلية والخرافية ورددها... وللأسف فقد تساهل في النقل وسكت عن النقد[45].

نرى من الصعوبة أن يكون فهم المفسرين للمعجزة دليلاً مقنعًا على صدق الاعتقاد بها. وذلك لسببين:

---

[40] محمد أركون، **القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني**، ترجمة هاشم صالح، (بيروت: دار الطليعة، ط2، 2005)، ص 167

[41] المرجع نفسه، ص 168

[42] سبينوزا، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، ترجمة حسن حنفي، (بيروت: دار الطليعة، ط4، 1997)، ص 221 و222

[43] آمال محمد عبد الرحمن ربيع الأستاذة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، حاصلة على درجة الماجستير في رسالتها عن المرأة اليهودية، ورسالة دكتوراه بعنوان الإسرائيليات في تفسير الطبري.

[44] الإسرائيليات: في اصطلاح علماء التفسير والحديث تعني تلك الأساطير والأحاديث المنقولة عن مصادر يهودية.

[45] آمال ربيع، "سرطان الإسرائيليات يطارد تراثنا"، **مجلة الوعي الإسلامي**، عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت: العدد 532 2010/9/3

1- الموضوع:

لم يفرق المفسرون بين موضوع الآيات وموضوع الأحداث التاريخية، والتي يمكن تمييزها - الثانية - بالنظر إلى: الوضوح التام في سرد الحدث الذي لا يحتاج لتفسير ولا تأويل، وتحديد زمان وقوع الحدث ومكانه، ومجال اهتمامها يركز على الكشف عن الخبر دون النظر لموقع الإنسان العادي فيها، وأحداثها معقولة ويمكن تصورها، وأخيرًا الخبر يأتي متكاملًا[46]، وهذا خلافًا لموضوع الآيات.

عند النظر إلى الآية: "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ" [الأنبياء: 69]، وبالمقارنة مع ما ذكرناه حول مواصفات الأحداث التاريخية لا نجدها تنطبق على الآية، الموضوع مبهم، ولا ذكر للزمان والمكان، والآية متعلقة بشخص النبي إبراهيم دون التركيز على حدث ما، وأحداثها غير معقولة ولا يمكن تصورها، والخبر غير متكامل هذا من جانب. ومن جانب آخر إذا اعتبرنا أنّ الحدث تاريخي، ولفظ "كوني" يدل على الأمر الإلهي وهو الحدث الذي وقع، فإنّنا لا نجد أي توضيح في الآية عن السبب أكان غيبيًّا أم طبيعيًّا، فالآية لم تبين صفة الأمر الإلهي "كوني"، هل هو أمْر متمثل بالقانون الطبيعي (والتي ما هي إلا أوامر إلهية)، أم أمْر بخرقها؟!

2- اللغة:

اللغة هي أصل المعرفة والله في الأديان التوحيدية أظهر نفسه بها من خلال الوحي، فكثير مما نعرفه عن الله - عدا الذات - بواسطة القرآن والذي نطلق عليه أحيانًا ومن باب التقديس بكلام الله. إذًا، هو كلام (لغة) والله[47]. ومن هنا تأتي خصوصية لغة القرآن، كلام بين الله والإنسان، وهي تختلف عن اللغة العادية التي بين إنسان وإنسان آخر، مما ترتب عليه مشكلة فهم المعنى. ولتمييزها عن اللغة الاعتيادية سُميت بـ "اللغة الدينية" ونُعرّفها ببساطة: اللغة التي تشير إلى نصوص وعبارات حول الله، ولأنّها حول الله تنبع صعوبة فهمها، ولدى الأديان التوحيدية بالتحديد إذ الفكرة مبهمة، وندرك جيدًا ما يقوم عليه فهم النصوص الدينية من تشكيل المعتقدات الدينية في تلك الأديان. أما مشكلة الفهم فمنشؤها: أنّنا نستخدم اللغة في وصف الأشياء المحدودة والمحسوسة وفي وصف تجاربنا، وعندما نستخدمها حول الله الذي هو لامحدود ولا نهائي ومتعال؛ حينها يكون المعنى غامضًا وغير مفهوم وأحيانًا يبدو بلا معنى.

---

[46] شريف حامد سالم، **نقد العهد القديم**، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2011)، ص 197 و198

[47] توشيهيكو إيزوتسو، **الله والإنسان في القرآن**، ترجمة هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص 249

مما سبق يتبين أنّ اللغة الدينية مختلفة عن اللغة الاعتيادية، فلا يمكن فهمها إلا بـ "الكشف عن معنى باطن من خلال معنى ظاهر، خاصة وأنّ لغة الوحي الإلهي - المقصود هنا اللغة الدينية - المكتنزة بالأسرار بحاجة إلى تدبر. ومهمة المؤول تكمن في النفاذ إلى أعماق هذه الأسرار، لأنّ هذه المعاني الخفية هي التي تحتوي على القصدية الحقيقية للذات الإلهية"[48].

المفسرون لم يضعوا منهجًا محددًا يبين الأساس الذي عليه فهموا لغة القرآن، إذ نرى اختلاف منهج التفسير في السياق الواحد مما أدى إلى مشكلة في فهم المعنى الذي عليه تشكلت المعتقدات، ومنها الاعتقاد بمفهوم المعجزة الذي وضعه المتلكمون بناءً على فهم المفسرين. لتوضيح ذلك، إذا كانت الآيات التي لا تتناسب مع فهم الذات الإلهية المنزهة عن التجسيد يتم تفسيرها بالمعنى المجازي، فلماذا لا يتم وبالسياق نفسه التفسير بالمعنى المجازي لتلك الآيات التي لا تتناسب مع فهمنا للنظام الدقيق الذي أوجده الله - تعالى - ودعانا للتفكر به... "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دابَّة وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لآيَات لِقَوْم يَعْقِلُونَ" [البقرة: 164]؟ ومما يستنكره ابن ميمون[49]: "ليس هناك ما يمنعنا من تأويل النصوص التي تفيد الخلق، وما كنا نتورع عن تأويلها كما فعلنا من قبل مع بعض النصوص عندما رفضنا أن يكون لله جسمًا"[50]. إذ كيف يتم تفسير "يد الله" بمعان مجازية عديدة لتُنزّه الله عن الجوارح وصفات الأجسام، ولا يتم تفسير آيات تخالف فهمنا للنظام الطبيعي كالتي تذكر أحداثًا خارقة كإحياء النبي عيسى للأموات وشفاء عُمْي باللمس؟!

مؤخرًا، بدأ بعض اللاهوتيين المسيحيين إنكار الاعتقاد بعودة ميت إلى الحياة بالمعنى الحرفي في إشارة إلى قيامة المسيح من الموت بعد صلبه[51]، ففي هذا الشأن يقول ويلي ماركسن[52] في كتابه "قيامة يسوع الناصري" إنّ موت يسوع وقيامته تعبير عن حقيقة الإيمان، فهو المنبع ومعرفتنا به تفيض الإيمان بداخلنا، وتحيي قلوبنا الميتة. وهذه هي القيامة[53]. مع العلم أنّ قيامة النبي عيسى من المعتقدات الأساسية لدى المسيحيين،

[48] عبدالله بريمي، الهرمنيوطيقا البحث عن المعنى في أزمة المعنى، **مجلة قضايا إسلامية معاصرة**، العدد(57-58)، 2014، ص 6

[49] موسى بن الحاخام ميمون بن عبد الله القرطبي (1135م-1204م)، فيلسوف وفلكي وطبيب وعالم من علماء التلمود، وممن يؤولون النص تأويلاً مجازيًّا. كما يذكره حسن حنفي.

[50] سبينوزا، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، ص 259

[51] قيامة النبي عيسى من بين الأموات بعد أن تم صلبه بثلاثة أيام بحسب المعتقدات المسيحية.

[52] ويلي ماركسن Willi Marxsen (1919م-1993م) عالم اللاهوت البروتستاني من ألمانيا، بحث في مسألة تاريخية يسوع المسيح، إذ ميّز حياته إلى: مرحلة يسوع، ومرحلة المسيح.

[53] Davis, S. T., Philosophy of Religion, (Oxford: Oxford University press, 2010), P. 437.

لكنهم يحاولون إضفاء فهم آخر لمعناها قائم على الفهم الروحي الذي يحتاجه - كما يعتقدون - الإنسان المعاصر، ودون الخشية من تقويض الدين المسيحي!

مشكلتنا فيما وضعه المفسرون، حيث لا يمكن المساس به لأنّ الكثير ينظرون إليه أنّه التفسير النهائي والقطعي والحقيقة الوحيدة المطلقة لفهم القرآن، على الرغم من أنّ مفهوم الحقيقة الوحيدة تنازل العالم الحديث عنها بعدما تسبب بحروب طائفية نتج عنها مفهوم جديد للحقيقة وهي الحقيقة "المتعددة". لكن، مازال بعضهم يرفض تجديد الفهم حتى بعد تطور المعارف المختلفة مثل اللسانيات والسيميولوجيا والتاريخ، مدعين أنّ من وضع التفاسير كان أقرب لزمن النبي وهو أكثر إيماناً بها وفهمًا لها، وما آل إليه هذا الادعاء، أنّ "الحكايات التي يرويها المفسرون لتفسير القرآن تصبح متعالية، لأنّها استخدمت في تفسير الكلام المقدس المتعالي. وعلى هذا النحو يتقاطع ما هو ديني مع ما هو سماوي وأرضي فيخلع التقديس على كل شيء"[54]. ويرى محمد أركون (ت 2010م) أنّ بعض الأحداث قد حدثت، لكن وبسبب حماسة المؤمنين لها تم تضخيمها ووضعها في إطار خارج الطبيعة، وبمرور الزمن يصبح من الصعوبة الفصل بين الحدث وما تم تضخيمه، "فالتاريخ لا تحركه الأحداث المادية، بل أيضا تحركه الروحانيات والتصورات والخيالات"[55].

ومثلما يحصل الآن من فرض "الدين الحق" علينا من قِبل تيارات دينية، توجه الآيات والأحاديث بما يتناسب مع ايديولوجيتها ولمصالحهم كقضية الخروج على الحاكم من عدمه، كذلك هم المفسرون القدماء الذين لا يختلفون عنا بشيء، إذ وضعوا تفسيراتهم بما يتناسب مع معتقداتهم المسبقة التي لا تخلو من مصالح وأهواء، وعن تأويلاتهم يقول نصر أبو زيد (ت 2010م): "كثير من تلك التأويلات تعتمد على جذب دلالة النصوص إلى معنى مسبق محدد سلفاً، معنى يعد جزءًا من منظومة فكرية فلسفية، تصوغ رؤية للواقع والتاريخ والعالم."[56].

ثالثا: نهاية البحث

أ) نظرة العالم:

تتولد أسئلة منذ الصغر وتتطور بمسيرة حياتنا، مثل: لماذا نحن هنا؟ أين الله؟ أين يذهب الميت؟ من خلق الكون؟ كيف يسير الكون؟ ما هو الزمان؟ ما علاقة الله بعالمنا؟ ما العلاقة بين الروح والمادة؟ كيف عاش البشر

[54] الاقتباس من تعليق هاشم صالح في كتاب "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني"، لمحمد أركون، ص 161

[55] محمد أركون، **قضايا في نقد العقل الديني**، ترجمة هاشم صالح، (بيروت: دار الطليعة، ط4 2009)، ص 144

[56] نصر حامد أبو زيد، **"النص، السلطة، الحقيقة"**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1995)، ص 133

قبل آلاف السنين؟ ما الغرض من الحياة؟ ما الواقع الذي نراه؟ ما الحقيقة، وكيف أعرفها؟ تعتمد أجوبتها المختلفة على الرؤى المختلفة. كل إنسان يملك معرفة خاصة عن العالم، أساسها وعيه وإدراكه وتفكيره بنفسه وعلاقته بما حوله، والتي تشكلت من خلال ثقافة المجتمع والدين والتعليم واللغة والخبرات في الحياة، ومعرفة الإنسان تختلف باختلاف تلك المكونات.

أما نظرة العالم بوصفه مصطلحًا فلسفيًّا فتعني: الإطار الذهني لنظام منسجم متكامل من الأفكار والمعتقدات التي من خلالها نعرف العالم، وموضوعها الإنسان والواقع والحقيقة والغرض من الحياة[57]. والموقف الذي يتبناه الشخص هو الذي يحدد نظرته إلى العالم، وهو ليس موقفًا شخصيًّا، بل هو موقف قائم إما على أصل مثالي أو مادي، ووفق بنية متكاملة شاملة. كمن يَعرف العالم على أساس سياسي، بيولوجي، ديني، طبيعي، ما بعد حداثي...

على سبيل المثال، المؤمن بتعدد الآلهة ينظر إلى "الواقع" الذي يعيشه، أنّه عالم مليء بالكائنات الروحية التي تتحكم بمجريات الطبيعة والآلهة والجن هي السبب الحقيقي لما وراء الأحداث الطبيعية. بينما "الواقع" بالنسبة إلى من يتبنى موقف ما بعد الحداثة، الواقع هو عالم كل ما فيه يُفهم من خلال اللغة والثقافة(البرادايم)[58]. ولمن يؤمن بالمبدأ الطبيعي ينظر إلى "الإنسان" أنّه نتاج لعمليات بيولوجية من التطور، والإنسان مادي خالص، ووجوده في هذه الحياة فقط. بينما "الإنسان" بالنسبة إلى المؤمن بالله، سيكون هو أكرم مخلوقاته لأنّ الله خلق الإنسان على صورته وهو مخلوق من روح ومادة، وروحه تنتقل لعالم آخر بعد مماته... وهكذا تختلف نظرة العالم.

ما علاقة نظرة العالم ببحثنا؟

الاعتقاد بالمعجزات يختلف باختلاف الموقف الذي يتبناه الشخص[59]، سواء الموقف الطبيعي أو الديني، واليوم هما مجالان مختلفان وليسا متعارضين كما كانا قبل أكثر من قرن.

فمن يتبنى الموقف الطبيعي لن يؤمن بحدوث المعجزة، لأنّ الطبيعة:

---

57 The Sustainable Enterprise,Mental model in civil society, Beth applegate,AMACOM BOOKS UK 2009, P78.

58 Christianity: The Faith That Makes Sense by Dennis McCallum (Tyndale). - See more at: http://www.xenos.org/classes/papers/5wldview.htm#sthash.xp4eOOMu.dpuf

59 Davis, S. T., Philosophy of Religion, (Oxford: Oxford University press, 2010), P. 436, 437.

1- وحدها الموجودة، وإنْ من الصعوبة تعريف "الطبيعة" إجمالًا إذ تختلف دلالتها بحسب الموضوع، وبالنسبة إلى بحثنا يمكن تعريفها: أنّها المجموع الكلي لكافة أشكال المادة والعلاقة ما بينها، وهي تقصي وتستبعد وجود غيرها، كوجود كائنات ما وراء الطبيعة.

2- الطبيعة أزلية لا بداية لها، وأبدية لانهاية لها، وغير مخلوقة.

3- الطبيعة منتظمة ومستمرة، ولا يوجد حدث غير طبيعي (معجزة).

4- الحدث يمكن تفسيره طبيعيًّا، والذي لا يمكن تفسيره اليوم ليس لسبب غيبي بل لقلة معرفة الإنسان به. وكلما ازدادت معرفة العلوم، قل ادعاء المعجزة.

أما من يتبنى الموقف الديني، يؤمن بحدوث المعجزات لأنّه يرى الطبيعة:

1- لها خالق، هو الله.

2- الطبيعة تعتمد في وجودها على الله.

3- النظام في الطبيعة قد يتغير، يتوقف بقدرة الله.

4- لا يمكن التنبؤ بهذه الأحداث - المعجزات - تمامًا، وهي مما لا يمكن للبشر تفسيره.

في هذا الشأن، من الضرورة توضيح اعتقاد شائع وهو أنّ العلم القائم على التجربة والملاحظة هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة العالم. وهذا الاعتقاد يرجع إلى عصر هيمنة العلم وحتميته واعتداد الإنسان بعقله (بداية التجريبية في القرن السابع عشر)، لكن وفي مرحلة متقدمة بدأ الفلاسفة بالتمييز ما بين العلم والمعرفة بنطاقها الأوسع من العلم الذي هو أحد فروع المعرفة (المعرفة العلمية)، فإن كان العلم - القائم على التجربة - هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة، ماذا عن المعرفة الفلسفية وهي غير قائمة على التجربة؟ ماذا عن الاعتقاد بالمعجزات؟ هل يمكن للعلم أن يثبت عدم إمكانية حدوثها؟ ماذا عن الروح، هل يمكن الادعاء بانعدام الروح وفق العلم التجريبي؟ وإن كنا ندعي أنّ العلم هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة، نتساءل ماذا عن فلسفة العلوم التي هي أساس المعرفة العلمية لإنتاج المنهج العلمي الصحيح لوضع النظريات وتحليلها ونقدها، إذ هي معرفة فلسفية لا تخضع للتجربة العلمية!

على ذلك، مثلما تختلف رؤيتنا للمنظر الواحد تبعًا للمكان الذي ننظر منه، كذلك هي نظرة (معرفة العالم، إذ لا يوجد من يملك نظرة صحيحة ونظرة خاطئة، فمن يملك مبررًا على اعتقاده بقضية ما، فهو اعتقاد

صادق بشرط أن يكون لديه دليل عليه. ووفق نظرية المعرفة المعاصرة في الدين التي تبين أنّ الاعتقاد يمكن تبريره فقط بوجود دليل (إذ كان النقاش في الماضي حول ما إذا كانت "معايير" الدليل المرتفعة، يمكن أن تطبق على المعتقدات الدينية التي تعتمد في كثير منها على الإيمان، أي دون دليل موضوعي[60]) فمن يعتقد باعتقاد صادق فهو اعتقاد عقلاني (وإن شاء أن يصدق أنّ الماء الذي جرى من عيني تمثال العذراء - كما في القصة المذكورة أعلاه - هو دموع فله ذلك) بشرط أن تعتمد بقية معتقداته على الموقف ذاته، لتكون معتقداته كلها منسجمة ومتماسكة مع بعضها ولا توجد لديه فكرة تناقض الأخرى.

(ب) ما نخلص إليه:

لما وصلنا إلى نهاية بحثنا "المعجزات في فلسفة الدين" وجدنا الناظر إلى مفهوم المعجزة من خارجها، بعدما عاش في داخلها، أشبه بالمولود الخارج من بطن أمه إذ كان الأمان والاستقرار والظلام يلفه حتى خرج إلى عالم الشك والخوف والنور والسعي للبحث عن طعامه بنفسه، ومدركًا "أنّ جميع المعجزات طبيعية، وإنّ الطبيعة كلها معجزة" بتعبير الغزالي.

ونحن بطبيعة الحال لا ننكر الرغبة في أن تحدث لنا معجزة ما، لما تحمله من إحساس اللذة بما تحققه من المنفعة حينما يُزاح الألم - إنقاذ صبي من الموت دهسًا - أو انتظار الخير بتدخل قوة خارجية أو حتى مجرد إحساس الدعم المعنوي - دموع العذراء في الكنيسة -. وعندما تتشابك رغباتنا مع قضية دينية فيتولد منهما معتقد ما، لا شك أنّ هذا المعتقد لن يخلوَ من قوة دفاع الناس عنه لآلاف السنين وانتقاله بين الشعوب، كما فعل "عزرا الكاتب" الذي نقل مفهوم المعجزة المستشري في الأساطير البابلية، إلى اليهودية إبّان الأسر البابلي، حيث يُصوّر الإله المنقذ لشعبه كي يخلصه من آلامه.

لكن المحاولات لجعل "المعجزات" تنتمي إلى عالم الطبيعة لن تصمد أمام النظرة الطبيعية اللادينية في تفسيرها. لأنّ مجال المعجزات هو خارج الطبيعة أما قراءتها "تاريخيًّا" فستحيلها إلى التاريخ وحينها لن تكون من الدين[61]، ومن لا يعتقد بالتاريخ لن يضر إيمانه شيئًا وسيظل مؤمنًا بالله دون إيمانه بالتاريخ.

---

[60] The Epistemology of Religion ***First published Wed Apr 23, 1997; substantive revision Wed Apr 24, 2013***
http://plato.stanford.edu/entries/religion-epistemology/

[61] إيمانويل كانط، **الدين في حدود مجرد العقل**، ترجمة فتحي المسكيني، (لبنان: جداول للنشر والتوزيع، 2012)، ص 150

كذلك يبدو لنا أنّ "المفهوم" يخالف اعتقاد المؤمن بيوم الحساب - تتعدد التسمية بتعدد الأديان - الذي يكون بعد رحيل الإنسان إلى عالم آخر ومحاسبة الله - الإله - له على أفعاله في هذا العالم عقابًا أو جزاءً. لكن، وحينما يُثيب أو يُعاقب الله الإنسان في هذا العالم على عمل ما، عندئذ... ما معنى "يوم الحساب"!

أما القول بالمعجزات دليلاً على قدرة الله، فهو صحيح. ونذكر ما توردة الصحف مرات حول حصول شخص على لقب أقوى رجل في العالم، هو لم يوصف بالأقوى عندما حمل 200 كيلوجرام بل عندما حمل وزن 525 كيلو جرام، لفعله العظيم. إذًا، غض الطرف عن قدرة الله في الكون العظيم بالقوانين الطبيعية السارية على كافة الموجودات، ووصف فعل الله "القدرة" على فعل محدود - كتوقف فرامل القطار - فهذا مما لا يتناسب مع قدرته. ولن نخوض في الحديث حول المعجزات دليلاً على وجود الله، إذ لا نعرف ما علاقة الخلل في صنع الساعة والدليل على وجود صانع عظيم لها؟ أما يكفي وجودها الرائع؛ دليل على عظمة الصانع؟

وبناء على مفهوم المعجزات فيما يشير إلى اختيار الله - تعالى - أشخاصًا ليكافئهم ويساعدهم دون غيرهم، يدعونا للتساؤل عن معيار الاختيار: الحب؟ الحاجة؟ أم ماذا؟!

نعتقد أن الله خلق القوانين التي تسري على الطبيعة كلها وأنّ الإنسان غير مُستثنى منها، وخرق تلك القوانين مرارًا وتكرارًا، لا شك أنّه يملأ العالم فوضى وعبثًا. ومما يدّعيه البعض أنّ تدخلاً إلهيًّا أنقذهم من الشر، مثل موت محقق جزاءً على حسن إيمانهم، فإنّنا نتساءل عن إيمان الغزال بحكم أنّه ينجو من الموت المحقق في كل لحظة بوجوده في مكان واحد مع قاتله ولم ينقرض!

وكنا قد بيّنا أنّ "المعجزات" لم تُذكر لفظًا في النصوص الدينية، لكن تم فهمها كذلك لتدل على صدق دعوة الأنبياء، فإنّنا نرى أنّ صدق دعوتهم أساسه مضمون الرسالة السماوية وطبيعتها وليس على قدراتهم الشخصية، وإيمان الفرد بالرسالة قائم على دليل ذاتي - أو ما يُمكن اعتباره كذلك - وبناءً على مفهوم مثالي، وليس دليلاً ماديًا خارجيًّا. وبهذا الشأن نُشير إلى ما يذكره المتكلمون عن القرآن وأنّه معجزة النبي (معجزة بمعنى خرق القوانين الطبيعية وليس معجزة عقلية)، في مقابل ما نقرأ في القرآن في سورة الإسراء: "وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولًا (93) وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94)" [الإسراء: 90-93]. فالقرآن ينفي عن النبي إتيانه بالخوارق لأنّه بشر جاء برسالة للناس، ليهديهم.

وبالعودة إلى سؤال المقدمة حول الغاية من موضوع المعجزات في الأديان، ففيما تطرحه فلسفة الدين في الغرب حول موضوع المعجزات اتجاهات عدة، لكن وجدنا أهمها هذين الاتجاهين، الأول: اتجاه نحو تغيير المفهوم الشائع (خرق القوانين)، وقد ذكرنا بعض المحاولات منها في الهامش كما طرحها هولاند ودافيس وغاسكن. لكن هناك اتجاه ثان، يسير نحو كشف المعنى الباطن لها، وهذا ما نجده من الأهمية في المعجزات التي تتناقلها الألسن من مجتمع لآخر عبر آلاف السنين حتى صارت إرثًا للبشرية لا يمكن إلغاؤه، سواء أكان الشخص مؤمنًا أو متشككًا بها. وإذا تعذّر علينا تفسير "المعجزات" طبيعيًّا فهذا لا يعني أنّها بلا معنى، لكن علينا تحديد السياق مسبقًا وهو سياق ديني وليس تاريخيًّا وطبيعيًّا، لنفهم المعجزات ويكون لها معنى[62].

ما يكشف لنا معنى "المعجزات" وأهميتها؛ هو وضعها في السياق الديني، وإذ كانت كثير من المشاكل تنتج عن سوء فهم اللغة لذلك وجب النظر إلى اللغة في النصوص الدينية، وذلك لا يتم إلا وفق منهج علمي صارم لا يخضع للأهواء والايديولوجيات، حتى تخترق "المعجزات" حدود نشرها في كتاب قصص مصور صغير يوضع بجانب السرير ونقرؤه لصغارنا: كان يا ماكان في سالف العصر والأزمان...

نختم البحث بأبيات للشاعر الصوفي جلال الدين الرومي:

لقد صار ذكر موسى قيْدًا على الخواطر، فكم من قائل: ما لنا نحن وهذه الحكايات القديمة؟

أيها العارف... ذِكْر موسى هنا مجرد حاجب وستار، خذ أنت منه نور موسى

فموسى وفرعون هما وجودك، ابحث عن هذين الخصمين بداخلك. [المثنوي الدفتر الثالث 1252-1254].

[62] Bloemendaal, P. F., Grammars of Faith, (Belgium: Peeters, 2006), P. 286.

 MominounWithoutBorders  @ Mominoun_sm  Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com